غاية الإجلال

لما حضرت عمرو بن العاص[1] الوفاة وهو في سياقة الموت ذكر حديثاً طويلاً قال فيه: "وما كانَ أحَدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ولا أجَلَّ في عَيْنِي منه، وما كُنْتُ أُطِيقُ أنْ أمْلأَ عَيْنَيَّ منه إجْلالًا له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصِفَهُ ما أطَقْتُ؛ لأَنِّي لَمْ أكُنْ أمْلأُ عَيْنَيَّ منه"[2].

•••

البيان:

لا يفوتك إذا طفقت تتصفح الأحاديث التي تدل على تعظيم الصحابة لنبيهم ﷺ وشدة إجلالهم له واحتفائهم به أن ترى حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه يحتل الصدر من تلكم الأحاديث، ولهذا بدأ به القاضي عياض في «الشفا» فصل (عادة الصَّحابة في تعظيمه وتوقيره وإجلاله ﷺ)، فهذا الحديث يتلألأ بجواهر الحب والتوقير ويشع بأنوار التعظيم والتبجيل التي كان الصحابة رضي الله عنهم يحملونها تجاه رسول الله ﷺ.

وتتكشَّف حقائق الإيمان في قوله رضي الله عنه: (وما كانَ أحَدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، ولا أجَلَّ في عَيْنِي منه)، كما جاء في الحديث المشهور في الصحيحين: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين)، غير أن في حديث عمرو معنىً زائداً على مجرد الحب العميق، وهو ما تحمله هذه العبارة من مشاعر الإجلال والتعظيم والتوقير؛ فإن الحب المشوب بالتعظيم والإجلال والمهابة أرسخ في النفس وأعمق في الفؤاد من الحب الذي لا يكون معه شيء من ذلك، وهذا الحب العميق المقرون بالإجلال والتعظيم والمهابة هو ما يوجب الطاعة والاتباع لا الحب المجرد.

---

(١) هو عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، من كبار الصحابة وأعلامهم، أسلم في السنة الثامنة من الهجرة قبل فتح مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص)**، ويُضرَب به المثل في الذكاء والدهاء وسرعة البديهة وحضور الخاطر، وكان قائداً شجاعاً في الجاهلية والإسلام لا يشق له غبار، وهو القائل: **(ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في حربه منذ أسلمت)**، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على بعض غزواته، ثم استعمله أبو بكر قائداً في فتوح الشام، وولاه عمر على فلسطين ثم سيره في جيش إلى مصر فافتتحها وصار أميرها. سماه عمر (أرطبون العرب) لدهائه وذكائه، وكان عمر إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال متعجباً: **(خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد)**! توفي سنة ٤٣هـ.

(٢) أخرجه مسلم (١٢١).

ثم يقول رضي الله عنه في مكاشفةٍ بليغةٍ صادقةٍ يصف حقيقة حاله: (وما كُنْتُ أُطِيقُ أنْ أمْلأَ عَيْنَيَّ منه إجْلالًا له، ولو سُئِلْتُ أنْ أصِفَهُ ما أطَقْتُ؛ لأَنِّي لَمْ أكُنْ أمْلأُ عَيْنَيَّ منه)!

من الذي يقول هذا الكلام؟ أهو نفسه عمرو بن العاص بن وائل السهمي؟! أهو عمرو الداهية الذي كانت له عينان تكتحلان بالذكاء والدهاء؟! أهو عمرو الذي تسامعت بشجاعته العرب وتولى بعثات النبي ﷺ وغزواته وكان على رأس الجند في فتوح الشام ومصر؟!

إن رجلاً مثل عمرو بن العاص في حدة ذكائه ودهائه وقوة شجاعته وثباته يحكي أنه كان يسارق الطرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم إجلالاً له يدل على منزلةٍ عظيمةٍ مهيبةٍ تمكنت في أغوار قلوب الصحابة رضي الله عنهم، **وكلما كان الرجل منهم أعظم دهاءً وأكثر ذكاءً كانت المهابة في نفسه أمكن وأوثق وفي قلبه أجلّ وأعمق.. وتأمل قوله: (وما كنتُ أطيق) فإن فيه إشارةً إلى امتناع ذلك ولو مع المشقة، ثم وصف سبب الامتناع بقوله (إجلالاً له)، وكأنما بلغ الإجلال والتعظيم والمهابة في قلوبهم منزلةً تخور معها ضروبُ القوى وتتراجع عندها ألوان الشجاعة!**

واستراقُ النظر هذا من أعظم شواهد المحبة الراسخة المقرونة بالتعظيم والإجلال والاحتشام، كما قال ابن القيم: (**والاسترَاق لَمْحٌ بخفيةٍ من حيثُ لا يشعر المَلْمُوح. ولهذا الاسترَاق أسبابٌ، منها: تعظيم الملموح وإجلاله، فالنّاظر يسارقه النّظر ولا يُحِدُّه إليه إجلالًا له، كما كان أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم لا يُحِدُّون النّظر إليه إجلالًا له**) ثم ساق حديث عمرو في ذلك. وكما قال بعضهم يصف حاله مع محبوبه وما يلقاه من الاحتشام والمهابة في محبته فيسارقه النظر بمشقة:

أحتشِمُ البدرَ أن أراهُ فأل ** ـحاظيَ عنهُ بالدمعِ تحتَجِبُ!
فلم أزِدهُ على مُسارقةِ الجَفـ ** ـنِ ولحْظٍ بالعُسرِ يستلبُ

وإن كانت محبة رسول الله ﷺ لها لونٌ آخر لا يشاكله لونٌ من ألوان المحبة، فإن محبة الزوجة تختلف عن محبة الوالد، ومحبة الوالد تختلف عن محبة الولد، ومحبة الولد تختلف عن محبة الصديق والصاحب، وكل هذه تختلف عن محبة النبي ﷺ، ثم هذه الأنواع المختلفة من أجناس المحبة يجب ألا تفضُل محبة النبي ﷺ ولا تصل إليها، بل يجب أن تكون محبة النبي مقدماً على محبة الناس أجمعين على اختلاف أنواع المحبة. **وهذا المعنى الذي حققه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم!**